

البطل المغترب وفتنة اليوتوبيا في الثلاثية الإسكندنافية لمحمد ديب
**The expatriate hero and the sedition of utopia in the
Scandinavian trilogy of Muhammad Dib**

ماجدة نعيو¹ محمد زرمان²

¹جامعة باتنة-1- (الجزائر)، naioumadjda@gmail.com

²جامعة باتنة-1- (الجزائر)، zerroum59@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/12/22 تاريخ القبول: 2021/12/25 تاريخ النشر: 2022/01/23

ملخص:

في ظل الاغتراب، تسعى الذات الإنسانية إلى البحث عن فضاءات بديلة تلوذ إليها لتشبع حاجتها الروحية بعد أن أفل الواقع ووقف عاجزا عن إشباعها، لذلك ستحاول هذه الدراسة تسليط الضوء على افتتان البطل المغترب عند محمد ديب بالفضاء اليوتوبي في العوالم الغربية من خلال ثلاثيته الإسكندنافية وإلى أي مدى حقق هذا الفضاء طموحات بطله المغترب.

الكلمات المفتاحية: اليوتوبيا، الرواية، الاغتراب، الفضاء، البطل.

Abstract:

In lights of the alienation self seeks to search for alternative spaces that seek refuge in it and satisfy its spiritual need after it has escaped reality and stopped unable to satisfy it. Therefore, this study will try to shed light on the infatuation of the expatriate hero of Muhammad Muhammad Deeb in the utopian space in the Western worlds through his Scandinavian trilogy and to To what extent this space achieved the aspirations of the hero and the expatriate hero.

Keywords: hero, alienation, utopia, space, roman .

المؤلف المرسل: ماجدة نعيو

1- مقدمة:

اليوتوبيا ذلك الحلم الجميل الذي وقَّعه أفلاطون في مدينته الفاضلة وظل تشريعاً إنسانياً يداعب المخيلة البشرية، التي حاولت تصوّره والنسج على منواله هروبا من الحيف الاجتماعي والسياسي والثقافي الذي يلاحق الأفراد والجماعات في شتى بقاع العالم، حين يقع تخيّل فضاء حالم مواز للواقع، تتحقق فيه العدالة والمساواة وتُحترَم فيه الحريات الشخصية، ولأنّ الذات المغتربة هي الأشدّ تأثراً بالواقع والمحيط فهي الأكثر بحثاً عن هذا الفضاء الحرّ الذي يستجيب لمتطلباتها الدفينة غير المعبرّ عنها في غالب الأحيان. فتبحث عنها في فضاءات جديدة تروم فيها صبواتها وتلتقط فيها أنفاسها حين تجد ضالتها بين ربوعها بعد أن وضعتها مختلف اليوتوبيات على سكة الحلم المشروع. لذلك قبل الحديث والتوغل في هذه الدراسة يجدر بنا التعرف على خصوصية الاغتراب والمشروع اليوتوبي العام أولاً. ومن ثم التساؤل:

هل وجد البطل المغترب في الثلاثية الإسكندنافية ضالّته في الفضاء الآخر؟ أم سيزداد غربة وتعاسة؟ هل حقّق الفضاء الغربي للمغترب الحلم المنشود؟ أم أصيب بالخيبة؟ هذا ما ستحاول الدراسة الكشف والإجابة عنه.

2. مقارنة المفاهيم الأولية:

1-2- الاغتراب: يقترن مفهوم الاغتراب بالبعد والنوى؛ حيث لم تخرج المعاجم العربية عن هذا المعنى فهما هو ابن منظور يصرّح بهذا المعنى في قوله: " الغرْبُ: الدّهَابُ والتَّنَجِّي عَن النَّاسِ، وَقَدْ غَرَبَ عَنَّا يَغْرُبُ غَرْبًا، وَغَرَبَ، وَأَغْرَبَ، وَغَرَّبَهُ: نَحَاهُ...وَالغَرْبُ والغَرْبَةُ: النّوَى والبُعْدُ" (منظور، 1994)

أما على المستوى الاصطلاحي والأكاديمي فالاغتراب يطرح صعوبات مفاهيمية عديدة، فهو من المصطلحات العصبية على الضبط والتحديد" لاسبب غموض معناها، بل بسبب التعريفات الكثيرة التي وضعت لها وبسبب اتساعها

وكثرة استعمالها" (ص79، 1979): حيث إن إقحام بعض النقاد للمصطلح في مختلف الفروع العلمية والاجتماعية وضع تعريفه في موقف يتحرّج منه الباحث أثناء محاولته حصر هذا المصطلح وضبط حدوده المفاهيمية؛ حيث يعتبر من " الظواهر النسبية التي تختلف باختلاف المكان والزمان حسب المجتمع والتي تنتشر انتشارا ملموسا بين المجتمعات" (ميخائيل، 2000، صفحة 79)

أما الدراسات التي تناولت المسألة الاغترابية فتتلخص في أربع محطات رئيسية اختصرها قيس النوري فيما يلي: (قيس، 1979، صفحة 33، 32)

- البؤرة والتركيز: أي لماذا نغترب؟
- البديل: عندما نفقد العلاقة فما البديل عنها؟
- النمط: كيف يبرز أو يظهر الاغتراب؟
- السبب والعامل: ما العامل الذي يؤدي إلى الاغتراب؟

إن الاغتراب في حقيقته مرحلة " الانفصال التي تنبثق من الوحدة البسيطة ثم تعود من جديد إلى التوافق في وحدة أعلى متميزة" (ميخائيل، 2000، صفحة 79) إن الاغتراب في مجمله حديث عن الانفصال والتشظّي الذي يلاقيه المغترب مع غيره، وضياح يولّد للإنسان في آخر الأمر " الشعور بالخوف: الخوف من كل شيء، من المستقبل، بل ومن الحاضر نفسه، لأنه حاضر يطير به على نحو متّصل إلى عالم اليأس والحرمان الذي يخلقه" (عقاق، 2001، صفحة 43)

فالاغتراب وفق هذا الاتجاه شعور يلفّ صاحبه ويجعله منزويا بعيدا عن الأنظار، مما يخلق حالة متقدّمة من السلبيّة والتّصادم والرفض التام للآخر تساعد على تفاقم الوضع أكثر فيما لا يحمده عقباه ليغدو مرضا نفسيا يؤثر على علاقة الفرد بمحيطه الخارجي ويحدث اضطرابا على الصّعيد الخاص والجماعي.

لذلك يظل الاغتراب مرادفا لمعاني الكراهية والنفور والضياح، ممّا يعني اغتراب كل فرد عن غيره، كما إن النفور يرتبط بالاغتراب ويولد الكراهية

أحيانا، ويولد أحيانا أخرى العداوة والارتهان والاستلاب، وبفعل الظروف الخارجية سواء الاقتصادية أو السياسية يصبح الإنسان عبدا للأشياء ليتحول بدوره إلى شيء مسلوب الإرادة.

وقد اهتم النقاد على مرّ العصور بقضية الاغتراب فارتبط هذا الأخير بأسماء أعلام أدلوا بدلوههم في هذا المضمار، كلّ حسب انتماءاته الفكرية وتوجهاته الإيديولوجية، حيث أصبح هذا الموضوع يشكّل هاجسا بحثيا نظرا لكونه وباء اجتماعي استفحل في المجتمعات المعاصرة التي سطرت الآلة الصناعية والقوانين التعسفية يومياتها. وسنسوق جهود بعض الباحثين على سبيل التمثيل لا الحصر.

1-1-2- الاغتراب عن روسو: اقترن اسم روسو بنظرية العقد الاجتماعي التي نادى بها في عديد كتاباته، حيث يميز روسو في هذا الصدد بين الحرّيتين الطبيعية والمدنية؛ إذ يقول في معرض التمييز بينهما أنه "ينبغي التمييز جيدا بين الحرية الطبيعية، وهي التي لا قيود لها سوى القوى التي للفرد، والحرية المدنية وهي التي تحدّها الإرادة العامة" (روسو، 2011، صفحة 100)

كما يجعل روسو من القوة سبيلا لفرض السنن الاجتماعي، حيث يحدّد في هذا الشأن أن الميثاق الاجتماعي "يهب الجسم السياسي سلطانا مطلقا على جميع الأعضاء التي تكوّنه" (روسو، 2011، صفحة 111)، كما إن السيادة الاجتماعية كما يشير إليها روسو لا تخلو من المهالك "إنما غاية المعاهدة الاجتماعية هي بقاء المتعاقدين، ومن ينشد الغاية ينشد الوسائل أيضا، وهذه الوسائل لايمكنها أن تتجرد من بعض المخاطر، بل ومن بعض الخسائر" (روسو، 2011، صفحة 117)

ومن هذا المنطلق فإن روسو يجعل من الحالة الاغترابية حالة صحّية وبنّاءة تمكّن صاحبها من الانصهار في روح الجماعة عن طيب خاطر من أجل الصالح

العام للقبيلة أو المجموعة البشرية، وذلك بأن " يتنازل كل شريك في الاجتماع عن شخصه وعن جميع حقوقه تنازلاً تاماً للمجموعة كلها" (روسو، 2011، صفحة 97)

فالعقد الاجتماعي الذي تناوله روسو بكثير من الدرس والتحليل هو عقد مسبق بين أفراد الجماعة البشرية تجعل الإنسان يذوب ويتحلل في روح الجسم الاجتماعي متناسياً طابعه الفردي باحثاً عن الانسجام التام داخل المجموعة، ليغدو الاغتراب وفق هذا المنطلق عملاً إرادياً ينجم طواعية وتغيب فيه القسرية إلا فيما ندر، ووفق ماتمليه الحاجة إلى ذلك.

2-1-2 الاغتراب عند هيجل: يعدّ هيجل أول من استعمل مصطلح الاغتراب في النقد الحديث، هذا ويدين هيجل بنظريته الاغترابية للمفكرين السابقين، وتلك الأفكار القائلة بالعقد الاجتماعي الذي يفرض كرهاً أو طواعية التنازل والاستسلام لروح الجماعة، هذه الأفكار التي نادى بها كل من روسو ونييتشه وشيللر.

وقد أخذ عن شيللر فكرة أن تقدم الثقافة قد مرّق الانسجام الأصلي الذي كان عند اليونانيين القدامى مع طبيعتهم الجوهريّة الخاصة، ومع غيره من البشر، ومع مجتمعه، ومع طبيعته. (ميخائيل، 2000، صفحة 80)

يعرّف هيجل الاغتراب بأنه حالة اللاقدرة والعجز التي يعانها الإنسان عند فقدان السيطرة على ممتلكاته ومخلوقاته ومنتجاته التي توظف لصالح غيره على حساب مالكمها الحقيقي، لذلك يفقد السيطرة والقدرة على تقرير مصيره بما في ذلك مجرى الأحداث التاريخية. (ميخائيل، 2000، صفحة 82)

3-1-2 الاغتراب عند ماركس: جعل ماركس من ظروف العمل وشروطه القسرية ووسائل الإنتاج مميّزات للحس الاغترابي؛ حيث اعتقد ماركس أن الطبقة العاملة هي أكثر الطبقات الاجتماعية اغتراباً، ومن هذا المنطلق إنه يتوجب البدء بتحرير هذه الطبقة من أجل الانعتاق من الاغتراب وفك قيوده. ويصرّ ماركس في

أحيان كثيرة على أن التشيؤ هو أحد الأسباب الهامة التي جعلت من الفرد يئن تحت وطأة الاغتراب، حيث جعلت القوة الصناعية منه منصهرا في هذه الحالة التي تنتج عدم التكافؤ بين العامل وصاحب العمل، ليغدو منتج الحضارة (العامل) مغتربا في حضارة صنعها أنامله وسواعده ليقدمها على طبق من ذهب لصاحب العمل لصاحب رأس المال، لذلك يطرح كارل ماركس الفكر الاشتراكي بديلا للرأسمالية.

فلاشتراكية في اعتقاد ماركس انعتاق من الحالة الاغترابية، إنها العودة إلى الذات وتحققها الفعلي في الوجود، فالاغتراب حالة من التمرد والانخلاع عن الجماعة، إنه " ممارسة للعالم والذات بشكل سلبي وبتلق، كما لو أن الذات هي في حالة انفصال عن الموضوع" (فروم، 1998، صفحة 63)

الاغتراب شعور بعدم التوافق بين الداخل (عند الإنسان ذاته) والخارج أي (الجماعة، المجتمع)، ولذلك فإن الاغتراب ينبع من دوافع داخلية وخارجية .

فالاغتراب ضرب من العزلة بين المغترب ومحيطه مما يحيل صاحبه إلى الهامش " فبقدر اقتراب الإنسان من التوازن تنتفي الهامشية والاغتراب وبقدر التنافر يكون التناهي المجهود الواعي الطي يبذله بطل الاغتراب للانتماء والوصول الى التوازن هو فجر الشخصية الايجابية... إذ أن البطل المغترب يكون بالضرورة مثقفا واعيا بذاته ومجتمعه وهو يمثل الجديد لهذا المجتمع ومشكلته هي عدم القدرة على التكيف مع بيئته الهابطة... فالمغترب هنا يمثل المثقف غير العادي المتفوق بالنسبة للوضع المنشود الذي يصبو إليه، والهامش أيضا يمثل هذا الوعي ولكنه لا يرقى إلى مستوى المغترب" (عودة، 2000، صفحة 19)

لذلك كله فإن الاشتراكية في اعتقاد ماركس ماهي إلا انعتاق من الحالة الاغترابية، إنها العودة إلى الذات وتحققها الفعلي في الوجود، فالاغتراب في مفهوم ماركس ماهو إلا حالة من التمرد والانخلاع عن الجماعة، إنه " ممارسة للعالم

والذات بشكل سلبي وبتلق، كما لو أن الذات هي في حالة انفصال عن الموضوع" (فروم، 1998، صفحة 68)

إن الآلة التي صنعها الإنسان بأنامله أصبحت تقيّد حركته وحرّيته، فالعامل" الذي لا يشارك في إدارة العمل، والذي " يستخدم" كجزء ملحق بالآلات التي يخدمها، يتحول إلى شيء عبر تبعيته لرأس المال" (فروم، 1998، صفحة 68)

فمفهوم ماركس للنتاج المغرب للعمل يتوافق مع مايسميه " وثنية السلعة التي تتحكم بكمّها وكيفها في وجود وقيمة صانعها ليغدو غريبا مغيبًا كذات كلية التطور، حيث" أن العمل المغرب لا يأخذ فقط من الإنسان موضوع إنتاجه، بل وحياته النوعية موضوعيته الواقعية ككائن نوعي، ويبدّل أفضليته على الحيوان إلى انعدام تمايز، إلى درجة أن جسمه اللاعضوي، الطبيعة، يؤخذ منه. فتماما، كما يحوّل العمل المغرب الحياة النوعية للإنسان إلى وسيلة للوجود المادي" (فروم، 1998، صفحة 68) ليصل ماركس إلى نتيجة مفادها أن" الوعي الذي يأخذها الإنسان من نوعه، يتحول عبر الاغتراب، بشكل تصبح فيه الحياة النوعية، كمجرد وسيلة للإنسان" (بركات، 2006، صفحة 36)

إن الآلة التي صنعها الإنسان بأنامله أصبحت تقيّد حركته وحرّيته، فالعامل" الذي لا يشارك في إدارة العمل، والذي " يستخدم" كجزء ملحق بالآلات التي يخدمها، يتحول إلى شيء عبر تبعيته لرأس المال" (فروم، 1998، صفحة 68) وهو الاغتراب عينه الذي يجعل الفرد منصاعا لصاحب المال يوجهها وفق رغباته الخاصة أو خططه الاقتصادية.

4-1-2 اغتراب عند فرويد: تغلغل الفكر الاغترابي في النتاج الفرويدي المرتبط بالأزمة الرأسمالية، التي زلزلت المجتمع خاصة مع تزايد التقد العلمي والصناعي، حيث يربط فرويد بين الاغتراب وشروط الحضارة التي جعلت الإنسان يعيش

تحت وطأة الحس الاغترابي، بالفرد بنظره يعاني من الحضارة بل ويتربص بها عدوا لدودا لها، انطلاقا من أن الحضارة تكبل الغرائز وتكبتها. فالاغتراب عنده ينشأ من الصراع القائم بين الذات والضوابط الحضارية بما تحمله من تعقيدات مختلفة مما يدفع إلى اللجوء إلى الكبت كألية دفاعية للحد من هذا الصراع بين الرغبة والتقاليد الاجتماعية العامة." لاتستطيع ان تزعم أنها حققت تقدما مماثلا في تنظيم الشؤون الإنسانية، وليس من المستبعد أن يكون عدد غفير من الناس قد تساءلوا في جميع العصور، شأنهم اليوم، عما إذا كان هذا الجزء من مكتسبات الحضارة يستأهل حقا الدفاع عنه" (فرويد، 1998، صفحة 9)

ويلخص تعاسة الإنسان إلى ثلاثة مصادر أساسية هي "تفوق قوة الطبيعة، وضعف الجسد، والحضارة المتحكمة في العائلة والدولة والمجتمع" (بركات، 2006، صفحة 49)

مما لاشك فيه أن كل حضارة تقوم على الإكراه على العمل وعلى نكران الغرائز، فالحضارة حسب فرويد وإن كانت قد قدمت درجات من الرفاهية لبني البشر إلا أنها تشكل قلقا للذات الإنسانية، مما يخلق صراعا بين قوى النفس التي قسمها فرويد تقسيمه الشهير، حي قام بتقسيم النفس البشرية على ثلاثة أقسام (الأنا الأعلى / الأنا | الهو)، وانطلاقا من هذه الأقسام الثلاثة تنشأ الحالة الاغترابية.

إذن فالحالة الاغترابية حالة قديمة قدم الوجود الإنساني، غير أنها ابتعدت عن أصولها الميتافيزيقية وتخلصت من المؤثرات الغيبية والدينية وتوارت عنها بمرور الزمن نتيجة المنجزات العلمية والحضارية وبرز المنحى التجريبي الواقعي، ليغدو الاغتراب حالة علمية تخضع للبحث والدراسة والتحليل والإحصاء بعيدا عن الماورائيات والغيبيات.

3- اليوتوبيا | الطوباوية

لم تعد الخطابات الأدبية في مجموعها خطابات فنية غرضها الإمتاع والمؤانسة والصنعة الأدبية، بل تخلّتها النزعة الإيديولوجية التي تروم تحقيق مقاصد وغايات في نفوس أصحابها. - وإن يكن الخطاب الأدبي لا يخلو من هدف أو غاية على العموم- فقد أخذ الأدب يتأسس على أفكار ترويجية خاصة مع الفكر الاشتراكي الذي طوّع الفن لخدمة أغراضه، ليخرج الأدب من عباءة التوثيق والوظيفة الفنية ليصل إلى مقاصد فكرية مهمتها الإقناع والإصلاح والبعث؛ إذ ابتعد الأدب عن عصر الواقعية ليبحث في عوالم الإيديولوجيا ونصر الأفكار اليوتوبية، فما هو مفهوم اليوتوبيا| الطوباوية؟ وماتاريخها؟

3-1- مفهوم الطوباوية:

لغة: وتعني: " والطَوْبَى بالضمّ (الطيّب) (الزبيدي،، 1987، صفحة 282)

اصطلاحاً: بدءاً لا بد من الإشارة الى أن مختلف البحوث والدراسات التي تناولت مصطلح الطوباوية لم تفرق بينها وبين مصطلح اليوتوبيا؛ إذ يتأرجح معظمهم بين المصطلحين دونما إعطاء فروق واضحة بين هذا المصطلح أو ذاك.

كلمة الطوباوية مرادفة لكلمة اليوتوبيا في اللغة الأجنبية، ويعد سير توماس مور Thomas More أول من أطلقها على كتابه الموسوم ب(Utopia) أو توبوبيا في النسخة العربية، وقد "اشتقها توماس مور من كلمتين يونانيتين (Ou بمعنى لا و(Topos) بمعنى مكان ، ولكنه أسقط حرف O وكتب الكلمة باللاتينية لتصبح (Utopia) ووضعها عنواناً لكتاب له هو أشهر وتوبيا في العصر الحديث". (برنيري، 1997، صفحة 7)

فكلمة يوتوبيا وفق هذا التحديد " نحت من Ou و Topos أو eu- topos وتنصرف دلالة الأول إلى الخلاء الذي لا يمكن إسقاط وصف المكان عليه، إنه المكان الذي لا يوصف إنما يمكن أن يُتخَيَّل، وبعبارة أخرى فهو اللامكان، فيما

تنصرف دلالة الثاني إلى مكان الفضيلة، فتكون اليوتوبيا هي المكان الفاضل الذي لا نظيره في الأمكنة الواقعية (إبراهيم، 2013، صفحة 94)

وبذلك تكون اليوتوبيا المكان المغمور بكل ضروب الخير والسعادة والعدالة، فلا يوجد فيه أي مظهر من مظاهر الكراهية والتعصب والضغائن، لكنه مكان خيالي وعصي على الوصف إلا على سبيل الرمز والإيحاء.

ويعرّف عبد الله العروبي الطوباوية في كتابه (مفهوم الدولة) بأن الطوبى هي "تخيّل نظام أفضل خارج الدولة القائمة" (العروبي، 2006، صفحة 147)، كما تعرّف أيضا على أنها تعني "نموذجا لمجتمع خيالي مثالي يتحقق فيه الكمال أو يقترب منه ويتحرر من الشرور التي تعاني منها البشرية ولا يوجد مجتمع هكذا في بقعة محددة من بقاع الأرض بل في أماكن وجزر متخيّلة وفي ذهن الكاتب نفسه وخياله قبل كل شيء." (برنيري، 1997، صفحة 7)

ومما سبق من تعاريف يشير إلى أن الطوباوية أو اليوتوبيا بحث عن الخلاص من عالم مرّفته المادة وعصفت لعبت به أهواء البشر لتؤسس اليوتوبيا عالما تملؤه السعادة وتسود فيه القيم النبيلة والعدالة المنشودة.

فالفكر الطوباوي يقوم على خلق عالم افتراضي- إن صح القول- مردّه عدم الرضا الذي يسيطر على بني البشر عبر التاريخ" فالواقع الإنساني لم يكن أبدا موضع الرضا بالنسبة لأصحاب النفوس العالية والعقول الكبيرة، فالواقع مليء بالشرور والخطايا، والإنسان لم يستطع أن يحقق سعادته المثالية فوق الأرض" (عيد، 1985، صفحة 143) حيث إن رهانات اليوتوبيا ظلت تصبّ دوما في حقيقة كون

الإنسان " قادر على تغيير الواقع لصالح خياله." (منير، 2004، صفحة 343)

ويقارب سيوران بين مفعول اليوتوبيا والكيمياء عندما تشتركان في نواحيهما الإيجابية، فكلاهما " يسعى في مجال غير متجانس وراء حلم بالتحوّل مشابه إن لم

يكن مماثلا بحلم الآخر، تحمل الخيمياء على مالا يختزل في الطبيعة، بينما تحمل اليوتوبيا على مالا يختزل في التاريخ." (سيوران، 2010، صفحة 134)
فاليوتوبيا ظلّت عبر الزمن تلعب ذلك الدور التأسيسي البناء الذي يغدّي الحلم البشري ويحفظ له الرغبة في البقاء.

4- تجليات الفضاء اليوتوبي في الثلاثية الإسكندنافية:

تحاكي الثلاثية (سطوح رسول، ثلوج من رخام، غفوة حواء) هموم رجل شرقي مغرب مزّقه الاغتراب يعاني الغربة والضيق في مجتمع دخيل، تحكي واقعا سياسيا، وتضيء على صفحات للحب المختلط بين امرأة ورجل من عالمين ومختلفين، مقدّما نموذجين لهذه العلاقة. وإفرازات الزواج المختلط في الوسط الغربي.

4-1- على الصعيد الطبيعي والعمراني:

ظلّت عذرية الأرض حلما تصبو إليه الأرواح المتبرمة من دنس المدينة وجوّها المحتقن والمتعقّن بالضجيج والرذيلة، يقول عايد عند ملامسته لهذا الفضاء الطبيعي: " كلما كانت الأمكنة التي تغامر إلى وطئها أكثر توحشا، وأكثر عزلة، كلما تنتعش وتسترجع حيويتها، ينتمي بلدها الأصلي إلى الاخضرار والى المياه أكثر من انتمائه إلى الإنسان، هي أيضا كائنة مائية ونباتية، بمجرد خروجنا من السيارة تنطلق دون أن تنتظرني، تداعب بيديها الحشائش المرتفعة، لمساتها الأولى، اتّصالاتها الأولى، فلا يمكن أن تستغني عنها، أتركها تبحث عن تلك الألفة التي تحنّ إليها، وتحتاج إليها في لحظات الوجد، لحظات العُصاب القصوى" (ديب، غفوة حواء، 2011، صفحة 196)

ليضيف في موقع آخر: " كانت رؤية تلك الجزيرة ابتهاجا يسخر من اندهاشي الأول، ولكن اندهاشي تضاعف بوفرة تلك الأزهار البرية، أكثر مما نأمل، سواء وجهت نظرك إلى اليمين أو إلى الشمال، أو إلى أي اتجاه آخر، يقابلك شلال

من الألوان الزاهية، وتلك الروضة المنعشة التي يسبح داخلها كل هذا الجمال الفتّان، يجرفك هذا الجمال بأريحته وشفافيته المعطرة، الأشجار المعطرة... ومع ذلك لا يمكن لهذه الكلمات أن تصف تلك الروعة التي غمرتني في ذلك اليوم" (ديب، ثلوج من رخام، 2011، صفحة 87)

ب- تتعالي اليوتوبيا والعمارة في أنهما نموذجان للخيال يمكن لصاحبه رسم عالم افتراضي من محض الخيال، يمنح له هندسة الفضاء مثلما تفعل اليوتوبيا تماما، حينما تنشُد الكمال المفتقد إلى حد بعيد على البسيطة، لذلك تلتقي اليوتوبيا والعمارة في فكرة الخلق والهندسة، ويمكن كذلك القول إنها أي العمارة تظل جزءا من المشروع اليوتوبي لأنها الأرضية التي تضم مختلف البنى الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تدور في فلك هذا المعمار المتخيّل.

لعل أول مايلفت انتباهنا أثناء الاغتراب هو المكان بجماليته وحسن تنظيمه، بألفته ووحشته، كل ذلك انطبع في نفس البطل الذي راح يحكي عن هذه العلاقة بينه وبين المدن والمساحات المختلفة فيها.

حيث تتعدد أسماء المدن في الثلاثية ويتحقق معها استلاب وذهول البطل المغترب، وجرفير واحدة من هذه المدن التي سيطرت على عايد في سطوح أرسول وجعلته يعيش الاستلاب "أعيش في حيّ المنتهي إلى جرفير العتيقة، المحاط ببيوتٍ من هذا النّوع، وفندقي واحد منها، أمرّ كل يوم أمام بيوت أخرى، وكل يوم يزيد إعجابي بها، المدينة الحديثة تملك أيضا مغرباتها إلى حد ترككم مذهولين من المفاجأة، حتى وإن تعلق الأمر فقط بهذه العمارات، هذه المجموعات الواقعة في أحياء متعددة، والتي يسحرني منظرها عند كل رؤية. حقًا تملك أناقة وجرأة التجديد الرائعة هنا، مثيرة للذهول... لها صفة المعجزة، معجزة أليفة إن شئتم، إن أمكن لهذين اللفظين أن يجتمعا معا." (ديب، سطوح أرسول، 2011، صفحة 75)

حيث يصيب البطل الدهول من جمال الأمكنة هناك التي أصابته بالاستلاب والدهشة والروعة، يعجب بذلك التناسق والنظام الذي يلقها " تستحق هذه الساحة أن أقول عنها كلمتين: رائعة، نعم كم هي رائعة، بشكلها المربع، أتذكر وأبعادها المهيبة بلا إفراط، مخارجها التي لا تقع إلا في الزوايا، تحت أروقة، خافية عن الأنظار، وقبل كل هذا بذلك التماثل والنبيل بفضل تلك الأروقة المقنطرة والأعمدة التي تحيط نفسها بها. بمجرد أن تطأ عينك بساطها، ينتابك زهوٌ يغير حواسك ولا تعرف أي الأشياء تترك إعجابك ينساق خلفها، أتلك التفاصيل الدقيقة المكتملة أو ذلك الانسجام المعيب للكل، سيدوخك تتابع الموتيفات المزينة المتماثلة في جميع الأمكنة... ستقع في جنون وحبّ هذه الروعة العجيبة قبل حتى أن تعدّ جميع جمالياتها، أقع دوما في مثل هذه الحالة الشعورية المذهلة كلما مرتت بها." (ديب، سطوح أورسول، 2011، صفحة 37)

فجرفير مثلها مثل المدن التي سكنت كتاب اليوتوبيا الذين استلبوا بمدنهم الفاضلة وعبروا عن حسن نظامها مثل مدينة "يوتوبيا" للقديس أوغسطين، فجرفير كما يرى عايد ليست مثل المدن الأخرى التي يتحاشى ذكرها، ظلّت وقيّة لطبيعتها العمرانية، تصارع صروف الزمن وانقلابات الطبيعة" خارج هذا المكان لا أحد يعرف حقيقتها، ولا سعادة العيش في هذه الحياة. على مرّ الأيام، اقتنعت بالأمر شيئا فشيئا، وسأبقى كذلك في كل مكان يبدو الوجود المليء بالزيغ والعمى، وعاديا هم الناس المنخدعون الذي يعيشونه، في أي مكان باستثناء جرفير" (ديب، سطوح أورسول، 2011، صفحة 37)

دبّ شعور الألفة شيئا فشيئا في نفس عايد فبدأ يتأقلم مع هذه المدينة بعد أن كان ضجرا من وجوده فيها، "عظيمة، هي الكلمة اللائقة بجرفير" (ديب، سطوح أورسول، 2011، صفحة 35)

2-4 - على الصعيد الاجتماعي:

جُبلت النَّفس على حبِّ من يحبُّها ويولمها الاهتمام والرعاية، وهو ما افتتن به البطل في هذه البلاد الغربية، فمن بين العادات التي لفتت انتباه عايد احترام الضيف الذي يعدّ واجبا مقدسا عند أهل جرفير الذين لايتأخرون عن حسن الضيافة بكل حب وتواضع؛ حيث يتفانون في خدمة الآخرين وتسهيل أمورهم بل وإسعادهم، ويتساوى في ذلك المواطن وعابر السبيل على قدم السواء، " هكذا هو حسن الضيافة، إنه عام، ويرتبط بجوّ من الصرامة السائدة عند سكانها الأكثر تواضعا. وهذا مايمسّ وترا حساسا بداخل كل واحد منا...وقد لاحظت عند وصولي كيف يحب كل واحد تسهيل حياة الغير. إن كل ما من شأنه أن يكون مفيدا لكم، أن يساعدكم على راحة أكثر، تجدونه يتحقق بأريحية لا مثيل لها؛ ليس فقط سعادة المواطن: سعادة البشر عموما، تعتبر مهمة مقدّسة لدى سكان يشملهم الإجماع في هذه الإجراءات" (ديب، سطوح أورشول، 2011، صفحة 37)

كذلك "يوجد من أوكلت إليهم مهمة ضمان سعادة أمثالهم، وتوفيرهم لهم حياة ليس فيها شقاء ولاضجر، حياة تصبح مثلا يحتذى به، ويمكن أن يكون هذا الشخص هو أنا، أنت، أو أي شخص آخر" (ديب، سطوح أورشول، 2011، صفحة 131)

كذلك لفت انتباه البطل الهدوء الذي يطبع هذه المدينة إنها مدينة السلام والطمأنينة، وإن شئت قل مدينة الأحلام يقول عايد: " حيث انتهت من الساعات الأولى عند قراءتي للجرائد أنه لا تحدث فيها أية جريمة، ولا أية سرقة، ولا يلحظ أي انشقاق بين سكانها، ولا تهزّ المدينة أية فضيحة من أي نوع كان، كما يحدث في مدن أخرى لا أذكر اسمها. لقد تناسب هذا مع حدسي الأول وأضيف إلى موافقتي. ففكرت 'هنا في هذا المكان ستبحث لنفسك عن إقامة، وربما لمدة طويلة، هنا ستعيش وتشتغل، وتلك البشاشة على وجوه الأطفال. وتلك الابتسامة

الرائعة. إنها لمتعة كبيرة أن تشاهد الناس وهم ينصرفون إلى أعمالهم، أن تتجول في وسطها يبدو البقالون أنفسهم على هيئة ضيوف لطفاء عوض فرسان متلهّفين على المتر والميزان" (ديب، سطوح أورشول، 2011، صفحة 38)

هاهو قد وجد بديلا عن الوطن ساعة غلّقت في وجهه الأبواب" لقد خسرت بلدا، أو بالأحرى خسرتني بلدي، فبحثت عن واحد يقبل التكفل بي... ولكنني فكرت مباشرة بأنني لن أستولي على مكان أحد...فكرت، وحبّ امرأة؟ ألا يمنحك حقوقا؟ ألا يمنحك هذه المكانة التي تبحث عنها؟ قوة الحب" (ديب، سطوح أورشول، 2011، صفحة 17)

لقد أنشأ عايد لنفسه قانونا يمنحه اللجوء في هذه الأرض الغريبة، ولم يكن هذا القانون إلا الحب، فحبّ روسيا منحه ضوءا أخضر للمواطنة.

3-4- البطل المغترب والعلاقات الاجتماعية: ربط ديب بطله المغترب بعلاقات مختلفة ومتنوعة، فكثيرا ما ينظر الرجل الشرقي للمجتمع الغربي نظرة استلاب بالنظر إلى مقدار الحرية التي يتمتع بها الأفراد، فهل ستحقق هذه الحرية رضا للبطل؟ هل سيجد في نظام الأسرة ما يوافق روحه؟

ترك بطل سطوح أورشول خلفه زوجة نرجسية لا همّ لها سوى نفسها وإغداقها على جمالها وعنايتها بمظهرها على حساب الزوج والعائلة" هذه المرأة الجميلة التي ستبقى كذلك لمدة طويلة بلا شك، أنجبت طفلة واحدة...كما لو أن هذا أيضا تنازلا منها" (ديب، سطوح أورشول، 2011، صفحة 26) حيث لم تقع هذه الزوجة موقع الرضا في نفس زوجها، على خلاف الحبيبة التي وجدها في بلاد الغربية والتي تضحّ روحها بالأنوثة في طبيعتها الأولى وتبتعد عن الزيف" وجه مطهر عارٍ، متحرّر من الانفعالات والمصالح والانشغالات المضجرة، اختصرت تقاسيمه فيما هو جوهرى... في جماله الجوهرى، على كل حال أنت طيّبة، أدرك ذلك دون

أن أعرفك" (ديب، سطوح أورسول، 2011، صفحة 54) هاهي الحبيبة تسلب لبّ البطل نظرا لما تتمتع له من صفاء روعي وهو ما افتقده في زوجته "عايدة".

على خلاف من ذلك يعاني برهان بطل ثلوج من رخام مع الزوجة روسيا المرأة الأجنبية، التي استحالت العلاقة بينهما الى جحيم لا يطاق يقول برهان " لا نعرف أين ستنتهي بنا الأمور، أردتك، بحثت عنك أخذتك مثلما أنت، ربما أصبحت نجوم سماننا مظلمة بعد أن كانت مضيئة" (35) ليرد في موضع آخر قائلاً " يعني أننا نريد نزع الحبّ من ذواتنا، أو نحاول فعله، وليست الشكاوى إلا حججا واهية" (ديب، ثلوج من رخام، 2011، صفحة 29)

" لو نكتب الكلام المرعب الذي نتقاذف به في تلك اللحظات؟... أكيد أن الرغبة ستغادرنا عند أول تفكير، أريد القول، رغبة تلفظ هذا الكلام من جديد، وبما حتى التفكير فيه" (ديب، ثلوج من رخام، 2011، صفحة 149)

فالعلاقة بينهما أضحت معدومة تمزّقا الصراعات النابعة من الاختلاف الثقافي والقومي وغيرهما التي أجهزت على علاقتهما الزوجية وبنّت جدارا فاصلا بينهما، فهو يلوم نفسه على التسرع في هذه العلاقة بالمرأة الأجنبية، فطباعها وعاداتها وكل ماتعلّق بها أضحى يقضّ مضجعه ويقصم روحه؛ حين لم يشفع الحبّ وحده لاستمرار العلاقة بينهما.

5- خاتمة:

في ختام هذه الورقة البحثية أمكن لنا القول :

البطل المغترب وفتنة اليوتوبيا في الثلاثية الإسكندنافية لمحمد ديب

أ- إن البطل المغترب في ثلاثية ديب الإسكندنافية وجد في البلاد الأجنبية مهربا شرعيا امتطى فيه جماح اليوتوبيا بحثا عن الأرض الموعودة، وبحث عنها في جزئيات هذا البلد.

ب- وجد بطل محمد ديب في البلاد الأجنبية زخما على المستوى الطبيعي والعمراني انهر به لأنه الأقرب إلى الصفاء الطبيعي والنفس في صفائها الأول.

ج- خاب ظنّ البطل في البنية الاجتماعية للبلاد رغم الأحلام الجميلة التي رسخت في ذهنه فيما تعلق بالأسرة.

هـ- على الرغم من الجمال الذي قد يجده البطل المغترب في البلاد الأجنبية إلا أن الحنين يظل يلاحق روحه التائهة الباحثة عن السلام الداخلي المفقود والذي قد يتحقق نسبيا في الفضاءات الطبيعية التي لم يخالطها كدر.

ومهما قيل فيما سبق فإن اليوتوبيا تظل حلما وقف الإنسان عاجزا عن تحقيقه بالنظر إلى الصراع البشري عبر التاريخ الذي ظلّ على أوجّه والذي قد يستمرّ كذلك إلى يوم يبعثون.

المراجع:

1. ابن منظور أبو الفضل جمال الدين. (1994). *لسان العرب*، دار صادر، بيروت.
2. أحمد عودة. (2000). *الاعتراب في شعر بدر شاكر السياب*، دار الشروق للنشر والتوزيع، بيروت.
3. إريك فروم. (1998). *مفهوم الإنسان عند ماركس*، تر: رصاص سيد محمد، دار الحصاد للنشر والتوزيع.
4. الزبيدي،. (1987). *تاج العروس من جواهر القاموس*، تح: عبد الكريم الغريايوي، وزارة الإعلام، الكويت.
5. أنوود ميخائيل. (2000). *معجم مصطلحات هيكل*، تر: إمام عبد الفتاح، المجلس الأعلى للثقافة، مصر .
6. جون جاك روسو. (2011). *لعقد الاجتماعي أو مبادئ القانون السياسي*، تر: عبد اللطيف لبيب، المنظمة العربية للترجمة، بيروت ، .
7. حلیم بركات. (2006). *الاعتراب في الثقافة العربية" متاهات الانسان بين الحلم والواقع"*، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت..
8. سيجموند فرويد. (1998). *مستقبل وهم*، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت.
9. سيوران. (2010). *تاريخ ويوتوبيا*، تر: أحمد فتحي، منشورات الجمل، بيروت.
10. عبد الله العروي. (2006). *مفهوم الدولة*، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
11. قادة عفاق. (2001). *دلالة المدينة في الخطاب الشعري المعاصر" دراسة في إشكالية التلقي الجمالي للمكان"*، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

12. ماريا لويزا برنيري. (1997). *المدينة الفاضلة عبر التاريخ، تر: عطيات أبو السعود، لمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، داب.*
13. محمد ديب. (2011). *ثلوج من رخام، دار الشهاب، الجزائر.*
14. محمد ديب. (2011). *سطوح أورسول، دار الشهاب، الجزائر.*
15. محمد ديب. (2011). *غفوة حواء، دار الشهاب، الجزائر.*
16. وليد منير. (2004). *النبي المهزوم بين ماضي اليوتوبيا وصيرورة الواقع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.*

المجلات والدوريات:

1. إبراهيم محمود، (1979)، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج 15، ع2، ص79. *حول الاغتراب الكافكاوي" رواية المسخ أنموذجا. الكويت: مجلة عالم الفكر، مج 15، ع2.*
2. حسين عيد. (1985). *قراءة في رواية السيد من حقل السبانخ أو يوتوبيا عصر العلم. القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب مجلة فضول، مج 6، ع1.*
3. عبد الله إبراهيم. (2013). *يوتوبيا. الرياض: جريدة الرياض.*
4. ينظر: النوري قيس. (1979). *الاغتراب اصطلاحا ومفهوما وواقعا. الكويت، مج10، ع1: مجلة عالم الفكر.*